سلامة موسى

«يجب أن يتساوى الناس فى فرصة الإثراء. وذلك باصطناع نظام اشتراكى أو شبه اشتراكى حتى لا يولد واحد غنى وآخر فقير»
سلامة موسى

وسلامة موسى هو فى اعتقادى أول مفكر موسوعى مصرى. ولعله واحد من المثقفين النادرين فى التاريخ المصرى الذين تفرغوا للبحث والثقافة والكتابة ولم يلجأ إلى الوظيفة فحرر نفسه من قيودها مستنداً إلى ميراث ورثه عن أبيه. عدد من الأفدنة سميت عزبة، كانت تدر عليه إيراداً شهرياً يصل إلى ثلاثين جنيهاً. اكتفى سلامة موسى بها وتفرغ للثقافة.

والحقيقة أن والده الذى تولى منصبا حكوميا رفيعا «رئيس تحريرات مديرية الشرقية» قد تعب كثيرا فى إكراه هذا الفتى المتمرد على الانتظام فى سلك الدراسة. تعثر الفتى طويلا ولم يحصل على شهادة الابتدائية إلا فى عام ١٩٠٣ أى فى سن السادسة عشرة. وبعدها انطلق إلى القاهرة ليلتحق بمدرسة التوفيقية ثم الخديوية، لكنه نحى الكتب الدراسية وغادر المدرسة وتفرغ للقراءة، وتنوعت قراءاته تنوعا مثيرا للدهشة والحيرة.. قرأ رفاعة الطهطاوى ومحمد عبده وشبلى شميل وفرح أنطون وتولستوى وبرنارد شو وجوستاف لوبون وداروين وترجمات عديدة كانت تتلاحق فى مجلات «الجامعة» و«المقتطف» و«الهلال» وغيرها. ثم تمرد على هذه القراءات التى اعتبرها محدودة وانطلق إلى باريس. ويروى سلامة موسى فى كتاباته كيف انطلقت أنفاسه انبهارا بجريدة «الأومانيتيه» التى كانت تصدر عن الحزب الاشتراكى، وكيف تلمس على صفحاتها أول أحرفه الهجائية فى أبجدية الاشتراكية.

ويدهش الفتى خلال إقامته الباريسية من الاهتمام الفرنسى بدراسة الحضارة

الفرعونية، وتزداد دهشته إذ يقارن هذه المعرفة الفرنسية بالتاريخ الفرعونى بالجهل المصرى والتجاهل لهذا التاريخ. وكعادته يتخذ سلامة موسى قراراً غريبا فيعود من باريس مباشرة إلى الصعيد ليقضى شهرين متأملاً فى آثار الفراعنة، وهكذا يمزج الفتى سلامة بين عشقه للاشتراكية والعشق الجديد للحضارة المصرية القديمة.

ولعل البعض من أقاربه قد مارس عليه ضغوطا بأن ينضبط فى دراسة مدرسية ليحصل على شهادة، وبالفعل انتسب إلى كلية الحقوق لكنه لم يطق صبراً، فنحى الكتب المدرسية وعاد إلى قراءاته الموسوعية وإلى إتقان اللغتين الإنجليزية والفرنسية ليسلك عبرهما سبيل المطالعة المتنوعة.

وانضم سلامة موسى إلى «جمعية العقليين» و«الجمعية الفابية» فى لندن. وفى الجمعية الأولى تعرف على أفكار داروين والداروينيين وفى الثانية تعرف على النزعة الاشتراكية فى طبعة إصلاحية فابية. وزاد انبهار سلامة بالفكر الفابى بسبب نزعته الإصلاحية الهادئة وبسبب نهوض برنارد شو أحد قادة الفكر الفابى بالهجوم على جريمة الاحتلال البريطانى فى دنشواى. وفى هذه الفترة الثانية من رحلته المعرفية طالع سلامة موسى كثيرا من كتابات برنارد شو، سبنسر، نيتشه، تولستوى، غاندى، أوين، إبسن، وحتى كروبتكين صاحب مذهب «العدميين» (النهيليست) قرأ له وترجم له كتاب «نداء إلى الشباب».

وقد بدأ سلامة أول معاركه الفكرية بإصدار كتاب «مقدمة السوبرمان» الذى رد فيه بالأساس أفكار نيتشه ذات الصبغة العنصرية، ففى هذا الكتاب ينصح المصريين بالزواج من غير المصريات حتى يحسنوا النسل المصرى، ويردد فى الكتاب أفكاراً شديدة العنصرية «فالأبيض أرقى من الزنجى، ذلك أن الزنجى كان منذ مائة عام فقط يأكل الإنسان ومن المستحيل أن تكون مشاعره كمشاعرنا مهما طلى نفسه بآداب السلوك»، لكنه ـ ويا للدهشة ـ يردد فى صفحات هذا الكتاب العنصرى النزعة، أفكاراً اشتراكية فيقول: «ومما يساعد على رقى الأمة أن نجعل ناموس تنازع البقاء يجرى بلا إجحاف بين الناس. ولا يكون ذلك إلا إذا استوت أمامهم الفرص المعيشية بحيث لا يمتاز أحدهم عن الآخر إلا بكفايته الذهنية أو الجسمية، فيجب أن يتساوى الناس فى فرصة الإثراء، فقد يكون الغنى أحط ذهنا وجسما من الفقير ولكن امتيازه بالمال الموروث يعينه»، وبرغم أن هذه الكلمات تظل ملغومة بفكرة عنصرية تعطى للأقوى جسمانيا ميزة على الآخرين فإن ملامح

الاشتراكية توحى بصراع فى ذهن هذا الفتى الموسوعى القراءة. لكن هذا الكتاب لم يسلم من شجاعة المصادمة مع رجال الدين، «فالدين إذا خرج من دائرة علاقة الإنسان بالكون وأخذ يقرر أصول المعاملة بين الناس من تجارة وزواج وامتلاك وحكومة ونحو ذلك فإنه عندئذ يقرر الموت لكل من يؤمن به»، ثم هو يعلن تمسكه بالدين مؤكداً «إن الدين ضرورى لكل أمة ولكل فرد، ولا يمكن أن يعيش الإنسان بلا دين، لأنه ما دام قد شرع يفكر فى الكون زمانا ومكانا فقد شرع يفكر فى الدين» (مقدمة السوبرمان ـ ص٣١).

إنها بدايات قد تبدو مرتبكة وتختلط فيها الأفكار المتناقضة لكنها كانت ومنذ البداية توحى بأن صاحبها يوشك أن يرسو بقاربه الفكرى على شاطئ مزدهر.

ويحتاج سلامة موسى إلى عام أو عامين حتى ينضج فكره الاشتراكى الإصلاحى ويصدر فى عام ١٩١٣ كتابه «الاشتراكية».

* * *

«ومع أنى فى كتاب "هؤلاء علمونى" قد ذكرت عشرين من الأدباء والعلماء والمفكرين، فإنى لم أذكر معهم كارل ماركس داعية الاشتراكية. والآن أحب أن أعترف بأنه ليس فى العالم من تأثرت به وتربيت عليه مثل كارل ماركس. وإنما كنت أتفادى ذكر اسمه خشية الاتهام بالشيوعية».

سلامة موسى

وإذ نطالع كتاب سلامة موسى «الاشتراكية» وهو أول كتاب عربى يحمل هذا العنوان، نكتشف أنه يحمل نزعة إصلاحية وفابية واضحة. ربما بسبب علاقته بالفابيين الإنجليز وربما لأنه خشى أن تكون الاشتراكية الحقة كثيرة على الذهن المصرى فى ذلك الحين. فهو يقول فى مقدمة الكتاب: «تدعونى إلى كتابة هذه الرسالة الموجزة كثرة السخافات والغباوات التى تحكى عن الاشتراكية.. فغرضى الأول منها هو تنوير الرأى العام عن ماهيتها. ولست طامعاً أن تعد هذه الرسالة دعوة للجمهور إلى الاشتراكية ولا أن تكون سبباً فى تأليف حزب أو جمعية، ولكنى أطرحها أمام الجمهور القارئ عسى أن تكون خميرة تختمر بها الأفكار إلى حين تستعد البلاد للاشتراكية» (ص٥). هل هذا هو السبب؟ أم أن هناك سبباً آخر قاله صراحة فى زمن متأخر؟ «ولو كنت قد وجدت الحرية أيام

الحكومات الملوكية السابقة لألفت فى الاشتراكية بما كان يوجه ويرشد» (تربية سلامة موسى ـ ص٢٩٠).

ولقد تزداد الصورة وضوحاً فى رواية ذكرها أحد أصدقائه فقال: «إن سلامة كان أثناء عودته من إحدى رحلاته إلى أوروبا سنة ١٩٥٠ كان يقرأ كتاب "رأس المال" لكارل ماركس وهو على ظهر السفينة، وكان لقلقه وخوفاً من التجسس والمطاردة يلقى فى البحر كل ورقة بمجرد الانتهاء منها» (محمود الشرقاوى ـ سلامة موسى المفكر والإنسان – ص٤٤٠). لكن ذلك لم يمنعه مطلقا من الكتابة والتبشير والنضال من أجل الاشتراكية. فهو واحد من أربعة (سلامة موسى ـ محمود حسنى العرابى ـ محمد عبد الله عنان ـ على العنانى) وقعوا بيان تأسيس الحزب الاشتراكى المصرى (الأهرام– ٢٩ أغسطس ١٩٢١). ونقرأ فى هذا البيان: «فى تلك الآونة التى تعصف فيها النظم الرأسمالية الفردية بحياة بنى الإنسان وأرواحهم وعقولهم وجهودهم، تبث النظم والمبادئ الاشتراكية فى الأفئدة المعذبة لإنجاد الإنسانية وإغاثتها من بطش القوى الظالمة وتحقيق غايات العدالة الطبيعية»، وأيضاً: «لقد امتدت يد الاستعمار والافتيات إلى مصر فاستلبت حريتها عملا بسياسة تلك النظم الرأسمالية سعياً إلى استثمار أرزاقها واستغلال جهود بنيها.. لذلك كان من الضرورى أن يمتد إلى تلك البلاد صراع المبادئ الاشتراكية العادلة ضد هذه النظم الرأسمالية سعيا لتخفيف ظلمها وويلها الفادح. وتحقيقا لهذه الغاية نهض إخوان العمل فى مصر لتأليف الحزب الاشتراكى»، لكن سلامة موسى لا يلبث أن ينسحب من الحزب إذ تحول إلى حزب شيوعى مبرراً انسحابه بأنه يعتقد «أن البلشفية كثيرة الآن على حزب مصرى» (ونلاحظ هنا أنه لا ينتقد البلشفية بل ينتقد استعجال القول بها). كما أنه رفض الارتباط بالحركة الشيوعية العالمية قائلاً: «أراد مبتدئو الحركة فى مصر أن تكون صيغتها مصرية بحتة تتكيف بتكيف المزاج المصرى ولا تنقل عن أوروبا نقلاً، كما أرادوا أن ينهجوا نهج الاعتدال والثقة فى خطتهم بحيث لا يجد ولاة الأمور مجالا للتخوف أو الشدة فى سيرهم» (الأهرام ـ ١٩٢٣/٣/٤). لكن سلامة موسى ظل متمسكا بأخلاقيات الفرسان فلم يتنصل من زملائه الذين قبض عليهم بعد حل الحزب، ولم يندد بما فعلوا. بل إنه ظل يخترع أى ثقب إبرة ليتحدث عن الاشتراكية والبلشفية والشيوعية مدافعا عنها. والنماذج عديدة منها مثلا أنه كرس باب البريد فى «المجلة الجديدة» لأسئلة هى فى الغالب مصطنعة مثل

«القارئ ع.ج من الإسكندرية يسأل، أو القارئ ر. من البرازيل يسأل عن الفارق بين الاشتراكية والفابية والبلشفية والشيوعية» (١٩٣٠/٨/١) والإجابات تكون علمية ودقيقة وشارحة للألفاظ بشكل إيجابى. لكن هذا الحذر لم يمنع حملات الهجوم ضده فى مقالات عدة وكتب كثيرة وهو يعلق بشجاعة على كتاب ضده صدر دون اسم صاحبه فيقول: «سألت عن كاتبه فى إدارة المطبوعات فعرفت أنه ابن أخ رشيد رضا الصحفى الذى وفد إلى بلادنا كما تفد الطواعين، وخص نفسه بشتم الشبان المصريين واتهامهم بالإلحاد والشيوعية»، وبعد أن يورد نماذج من شتائم مقذعة وردت بالكتاب يقول: «وهكذا بحيث إنك تحتاج إلى أن تغسل يديك عقب قراءة هذا الكتاب. وقد تناولنا هذا السافل بتهمة الشيوعية والدعاية لها فوضع نفسه فى الوضع الذى يستحقه وهو وضع الجاسوس» (المجلة الجديدة - يوليو ١٩٣٠).

ورغم الهجمات يواصل سلامة موسى معاركه الفكرية ونضاله الوطنى والسياسى وأسس «المجمع المصرى للثقافة العلمية»، وجمعية «المصرى للمصرى» التى دعت إلى الاستقلال الاقتصادى، قائلا: «أيها الشباب المصرى كفوا عن معاملة الأجانب، لا يشترى أحد منكم شيئا إلا من صانع أو تاجر مصرى، فبهذا وحده يمكننا أن نحقق استقلالنا»، وكان سلامة يغضب كل يوم مرتين إذ يمر آتيا أو ذاهبا إلى جمعية الشبان المسيحية مارا بشارع فؤاد (٢٦ يوليو) فلا يجد أى محل مصرى فيه، وظل كذلك حتى استطاع أن يقنع بنك مصر بافتتاح شركة بيع المصنوعات المصرية فى هذا الشارع، ودفعت جمعية «المصرى للمصرى» تبرعا للإسهام فى افتتاح الفرع قدره ألف جنيه.

وفى عام ١٩٤٦ يقبض على سلامة موسى للمرة الأولى والأخيرة فى حملة إسماعيل صدقى على كل القوى الوطنية والتى سميت «قضية الشيوعية الكبرى»، وفى عام ١٩٥٨ يرحل سلامة موسى بعد أن أودع العقل المصرى أكثر من خمسين كتابا تنوعت فى مختلف فروع المعرفة ومئات الدراسات والمقالات لكنك تلمس فى كل منها، ومهما تنوعت أو حتى تبدت وكأنها متباعدة عن السياسة، نزعة أو لمحة اشتراكية.